الدكتور صلاح المختار

حول قضايا العلاقة بين النضال القومي والصراع الطبقي

كراسات عقائدية كراسات عقائدية كراسات عقائدية كراسات عقائدية كراسات عقائدية
كراسات عقائدية كراسات عقائدية كراسات عقائدية كراسات عقائدية كراسات عقائدية



منشورات الطليعة

حول قضايا العلاقة بين النضال القومي والصراع الطبقي

الدكتور صلاح المختار



مفاهيم اولية

ما هي القومية :

القومية ظاهرة اجتماعية ـ تاريخية وليست معطى بيولوجي، طبيعي . فلكي نستطيع تمييز شعب عن آخر ينبغي ان يتمتع كل شعب بسمات خاصة به . ان الشعوب تتكون عبر تطور يستغرق آلاف السنين ، يتم خلاله تراكم الصفات (العرضية) واستقرارها الى الدرجة التي تتحول فيها الى صفات (ملازمة) . والصفـــات

العرضية تظهر نتيجة مؤثرات بيئية واجتماعية متنوعة جداً ، في وسط متشابه ، او متقارب ، فتؤدي الى تمايزات (ثانوية) ضمن المجموعات البشرية المتقاربة ، تأخذ ، في ظـــل شروط معينة ، بالاستقرار والتبلور والتلازم مع مجموعة بشرية دون غيرها ، الى حد صيرورتها سمة خاصة وميزة ذاتية .

ولئن كانت هذه السمات والميزات الذاتية التي تظهر فـــي المجتمعات البشرية مجرد تمايزات ثانوية ، في مراحـــل النشوء الاولى ، فانها ، شيئا فشيئا ، تكتسب طابعا عميقا عندما تترعرع في مناخ اقتصادي ـ نفسي ـ لغوي جديد ناشيء .

ان التمايزات الراهنة بين الشعوب تمايـــزات تاريخية ، تكوينية ، وليست طبيعية ، بيولوجية . بمعنى انها حدثت نتيجة توافر شروط ملموسة واقعية ، يمكن اجمالها في :

ا ـ الاختلافات الاقتصادية .
ب ـ الاختلافات الاجتماعية ـ النفسية .
ج ـ الاختلافات الجغرافية .
د ـ الاختلافات اللغوية .

ثمة ميل ، سابق وراهن ، لدى الفئات التي تتشكل منهـــا المجموعات البشرية الى (التميز) ، واكتساب او اظهار صفـــات تنفرد بها دون بقية الفئات . فداخل القبيلة الواحدة يميل الافراد الى التجمع في عشائر ، وفي العشيرة الى افخاذ ، وفي الافخاذ الى عوائل الخ . حتى نصل الى الفرد الواحد ، الذي يطمح في امتيازات تكون (معنوية) في فجر الحياة البشرية ، و(مادية) بعد انقسام المجتمعات الى طبقات .

لكن هذا (الميل) يبقى في مرحلة تاريخيـــة ، وفي شروط معينة ، مجرد ميل (خاص) ضمن (كل) موحد ، لا ينفصل عنه ،

بل يرفض كل فكرة للانفصال ! انه مجرد تنوع (تلقائي) ، معنوي، في الميزات الذاتية للفئات .

ثم تبدأ هذه التمايزات ، في اللهجات وبعض العادات الثانوية ودرجة التأثر بالبيئة الجغرافية والموارد الاقتصادية الخ، باكتساب وجود (مستقل) ومتميز بصورة واضحة ، عندما تدخل الفئات المكونة للجماعة الواحدة في صراع داخلـــي على الموارد ومصادر الثروة والتوزيعات الجغرافية ، فيكون ذلك ايذانا بتفكك التجمع وظهور علاقات فئوية واجتماعية جديدة ملازمة للصراع التاريخي والفرقة الجغرافية ، اي انتقال (فئة) الى مكان آخر بعيدا عــن الجماعة التي تنتمي اليها .

وهذا بالضبط (مصدر) التمايزات (القومية) الاول . اذ ان هذه الفرقة الجغرافية ، والعداءات الفئوية ، الناجمة عن صراعات اقتصادية ـ اجتماعية ـ بقائية متداخلة ، ومتفاعلة ، تتحول الى مناخ لتكوّن جديد ، يختلف عن المناخ السابق الذي انتج تلـــك الجماعة عبر مئات او الوف السنين .

ينشأ عن ذلك وضع جديد تماما ، طابعه العام خضوع كل فئة منشقة عن الجماعة الى مؤثرات خاصة بها ، تقرر اتجـــاه تكوينها التاريخي واللغوي والاجتماعي ، واحيانا ، السلالي ، في العصور المنقرضة ، بل اننا نصل ، في مرحلة معينة ، الى حـد فقدان الارتباط المباشر ، اللغوي والاجتماعـــي والسلالي ، بين الابناء السابقين للمجموعة الواحدة . وهذا ما نلاحظه ، مثلا ، في اختلاق الفروع المتعددة للاصل السامي الذي تفرعت عنه الاقوام التالية : الاشوريون ، البابليون ، الكنعانيون ، العبريون ، العرب، الاراميون .

ان هذه التمايزات ، التي كانت ثانوية ، ثم تحولت الـــــى تمايزات (موضوعية) ، رئيسية تتجلى في لغة خاصة وتكويـــن نفسي ـ اجتماعي متميز الخ ، تستمر لفترة طويلة ، تاريخيا ،

في التأرجح ما بين التعصب لها ، ويتجسد ذلك في الحركات (العرقية) المتطرفة القديمة والحديثة ، والتي كانت ، في احيان معينة ، ستارا لصراع اجتماعي عميق ، وبين الخضوع الى تيار جديد وتقلص فاعلية هذه التمايزات التاريخية ، كما هي الحال مع ظهور المسيحية والاسلام ، اللذين ضما شعوبا مختلفة كثيرة، هذا التأرجح يستمر الى ان تتوفر الظروف الموضوعية الملائمة لتبلور كامل لهذه التمايزات .

الظروف التي ادت الى ظهور القومية

تنقسم هذه الظروف الى مجموعتين ، مترابطتين ، تاريخيا وداخليا :

ا ـ **ظهور القومية في الغرب** : فالظروف التي دفعت الى ظهور القومية في الغرب ، بصفتها التعبير الناضج عن تمايزات الشعوب عن بعضها ، كانت ظروف ظهور الراسمالية . ان القومية في الغرب ، ما كان لها ان تظهر ، **كحركة** ، لولا السوق الراسمالي الواسع الذي أدى الى قيام البورجوازية بتوحيد شعبها ، في اطاره الجغرافي ، لمنافسة بورجوازيات الشعوب الاخرى ، وتصدير سلعها ، او الاستيلاء على المستعمرات . لقد كان الاقطاع عائقا امام ظهور (الحركة) القومية نتيجة ميله الى (الانتاج الطبيعي) (١) والعزلة والركود . كانت هناك (شعوب) ، لكنها كانت في عهد الاقطاع ، وما قبله ، موزعة الولاء بين الامراء والاقطاعات

---

١ ـ الانتاج الطبيعي : هو احد ميزات النظام الاقطاعي الرئيسية ، ويفترض ان الانتاج لا يستهدف المبادلة ، انما سد الحاجة الداخلية للاقطاعية .

والسادة ، لذلك لم يتسنى لكل شعب اقامة الكيان الواحد الذي يشده الولاء التام الى الامــة . فجاءت البورجوازية بالنظــام الراسمالي لتحطم (التشتت) الاقطاعي ، وتقيم على انقاضــه (السوق القومي) الذي تباع وتشترى فيه السلع الراسمالية .

ان الانتاج الراسمالي ليس انتاجا (طبيعيا) ، بل هو انتاج (مبادلة) ، يستهدف (الربح) ، اولا واخيرا ، لذلك فان انتاجــه يفوق حاجة السوق (المحلي) ، فيتجه، اولا ، الى السوق القومي، وسط شعبه ، منافسا الاجزاء الاخرى من بورجوازيــة بلده ، فتظهر (الحركة) القومية كستار للمطمح البورجوازي للاستيـلاء على (مجموع) الشعب وتصريف السلع . ولا تكتفي البورجوازية، بعد سيطرتها على الامة ، بهذا الاتساع في سيطرتها ، بل تبدأ ، ثانيا ، بمحاولة ضم الاجزاء المتارجحة الولاء ، او السيطرة على الامم الفقيرة او المتخلفة وانشاء المستعمرات ! لقد توسع الانتاج الراسمالي واصبحت عجلته تدور بطريقة قانونية (محتومة) لتلتهم الامم الاخرى وتجعل منها (سوقا) للسلع الراسمالية ، و(مصدرا) للمواد الخام .

لقد كانت ثمة (ظاهرة قومية) ، هي السمات الخاصة بكل مجموعة بشرية ، لكنها لم تتحول الى (حركة) موضوعية، مستقرة، الا في مرحلة سيطرة البورجوازية ، ومرافقيها الحتميين (السوق الواسع) و(الانتاج الواسع) .

ب ــ ظهور القومية في الشرق :

اما في الشرق فان ظروف نشاة القومية، الظاهرة والحركة، مختلفة جدا : فلئن ظهرت الحركة القومية في الغرب كاستجابة لحاجات النظام الراسمالي الى سوق واسع فاضطرت الــــى

الاستفادة من (الظاهرة) القومية ، فان القومية في الشرق قد ظهرت بفعل :

١ ـ الحاجة الطبيعية (لسلطة مركزية) قوية تقوم بتوفير المياه ووضع نظام الري الضروري في مناخ جاف (٢) ، بخلاف الغرب الذي كان يعتمد على الامطار الغزيرة في الري فلم يكن بحاجة لسلطة مركزية ، ذات مهام (ادارية ضخمة) (٣) ، كما هي الحال في الشرق ، لتنظيم الري وإدامته وضمان وصول المياه الى المزارع . ويمكن ملاحظة ان السلطة المركزية القوية ، او الاستبدادية ، (تساعد) على بلورة صفات مشتركة بين الخاضعين لها ، اذا استمرت لفترة طويلة . ولعل مثال (الشعب العربي) يؤكد ذلك : (انطلق) العرب من الجزيرة العربية ، موطنهم الاصلي ، لينشروا (لغتهم) ونمط حياتهم في قارتين : آسيا وافريقيا !

٢ ـ لم يكن العرب شعبا (جديدا) ، كالشعب الاميركي ، او قبائل تطورت الى شعوب ، كالشعوب الاوربية التي كانت لمئات السنين قبائل متخلفة، بل انه (متميز) بصفاتهاللغوية والاجتماعية والاقتصادية منذ اكثر من الف عام ! فعندما فتح العرب اسبانيا واجزاء من ايطاليا ، كانت اوربا تسكنها قبائل متصارعة بدائية فوجئت (بشعب) متقدم في روابطه وعلاقاته وسايكولوجيته ! صحيح أن العرب لم تكن لهم آنذاك (حركة) قومية موضوعية ، اي

---

٢ ـ انظر : الياس مرقص : الماركسية والشرق ، دار الطليعة ، وكذلك : ماركس وانجلز : في الاستعمار ، ترجمة د. فؤاد ايوب ، دار دمشق .

٣ ـ الدولة الشرقية ، وان كانت اداة استبداد كلاسيكي ، الا انها لم تكن (دائما) اداة بيد طبقة معينة ، بل كانت ، في احيان معينة وتحت تأثير ظروف البيئة ، أداة خدمة عامة ، كانت السلطة المركزية القوية ميزة شرقية تلازم النظم الاستغلالية والنظم الاخلاقية ايضا !

مكتملة الصفات ومستقلة التاثيرات ، لكن المؤكد ان (الظاهرة القومية ، قد وصلت آنذاك ، اي قبل حوالي الالف عام ، الى حد فرز (حركة) قومية . لكن ذلك لم يتحقق نظرا لعدم توفر شروط سنتناولها فيما بعد .

ان (القدم) القومي العربي يضفي على (الحركة) القومية العربية استقلالا موضوعيا عن الظاهرة الراسمالية ، في جانب منها ، اضافة لتأثرها بالظاهرة الراسمالية .

٣ ـ لم يكن ثمة نظام راسمالي يقرر انبثاق (الكيان القومي) المتبلور ، كما حصل في الغرب ، نظرا لان النظام الانتاجي العربي (هجين) ، مختلط «اقطاع ، بقايا العبودية ، قطاع راسمالي تجاري» لا يساعد على قيام سوق وانتاج واسعين . اما (العامل الحاسم) في بروز الحركة القومية العربية ، قديما وحديثا ، فقد كان وجود عناصر وشروط ضرورية لظهور القومية «الارض ، الاقتصاد ، التكوين النفسي ، اللغة» منذ مئات السنين ، اضافة لقيام تجارب وحدوية عربية سابقة افتقدها الغرب : في عهد الخلفاء الراشدين تجمعت قبائل عربية في اطار عروبي ـ ديني، ثم جاءت الدعوة (الاموية) لتطرح مسألة العروبة بصورة تكاد ان تكون طاغية على الدين . ورغم هيمنة النزعة الدينية في عهد العباسيين الا ان العروبة بقيت هي السائدة ، سلطويا ، حتى أواخر عهدهم ، عندما سيطرت العصبيات التركية احيانا ، والفارسية احيانا اخرى .

هذه التجارب الوحدوية ، القومية ، السابقة ، والتي تتميز بها شعوب الشرق الرئيسية ، اضافة للمفاخر الحضارية والعسكرية والثقافية ، وتوفر اغلب شروط ظهور القومية ، كانت العوامل الحاسمة في النهوض القومي العربي المتبلور في اواخر القرن التاسع عشر ، وهي بنفس الوقت عناصر تميزه النوعي ، والتي تجعل ظهور الحركة القومية العربية سابق في مبرراته

ودوافعه لظهور السوق الراسمالي .

٤ ـ ساهم قيام الدول القومية في الغرب في توضيح الكثير من المفاهيم القومية العربية ، عبر تقديم الحل القومي لمشاكل التجزئة ، اضافة لتقديمه «اساسا» اكثر رسوخا لظهور حركة قومية متبلورة ومستقرة ، على صعيد عالمي . وهذا الاساس هو تطور النظام الراسمالي في الغرب وصيرورته الى ظاهرة عالمية .

٥ ـ تتميز الحركة القومية في الشرق بوجود الظاهرة الاستعمارية ، اولا ، ثم الامبريالية ثانيا ، وما يتركه ذلك من تاثيرات (خارجية) ، ارادية ، مخططة ، على تبلور هذه الحركة وتقرير اتجاهات نموها . لقد نشات الظاهرة القومية في الشرق في أحضان الاضطهاد الاستعماري الخارجي ، بينما لم تشهد الظاهرة القومية في الغرب هذا المناخ الاستعماري الصرف ، او الامبريالي ، وتقرر اتجاهها وفقا لتطور (تلقائي) ، غالبا ، فرضته اعتبارات تطور النظام الراسمالي .

وما يترتب على هذه الحقيقة التاريخية ، بالدرجة الاولى ، هو ان الحركة القومية في الغرب اكتسبت طابعا (بورجوازيا) اولا، ثم استعماريا ـ امبرياليا استغلاليا وعدوانيا ثانيا ، ترافق ذلك اتجاهات عنصرية متطرفة احيانا . وهذا هو الاساس الذي استندت عليه الحركة العمالية ، في الغرب ، في نقد القومية والفكر القومي ورفضهما ، وهو بالطبع رفض ونقد مقبولين وعلميين .

وعلى النقيض من ذلك فان القومية في الشرق ، نتيجة الاضطهاد الاستعماري والامبريالي اللذين تعرضت ، ولا زالت تتعرض ، لهما قد حددا سياساتها كسياسات (تحررية) اولا ، وذات مضمون اجتماعي متناقض ومزدوج ثانيا (دعوة قومية عربية بورجوازية اقطاعية تقابلها دعوة قومية عربية عمالية ـ فلاحية ـ بورجوازية صغيرة) وفرضا عليها طريق الاشتراكية اذا ارادت ان

تكون حركة نهوض حقيقي ثالثا .

(الظاهرة) القومية و(الحركة) القومية

بالاستناد الى الملاحظات والتحليلات السابقة ينبغي التمييز بين شيئين :

ا ـ **الظاهرة القومية** : التي تمثل تكوينا تاريخيا خاصا استقر عبر مئات السنين ، واحيانا عبر آلاف السنين، وقد اعطى هذا التكوين ثماره : خلق شعب متميز بلغته وتقاليده واقتصاده وارضه . ان الشعب العربي كان موجودا بميزاته (الجوهرية) الراهنة قبل اكثر من الف عام ، بخلاف شعوب الغرب الحديثة التكوين ، لكن وجود هذا الشعب القومي كان غير متبلور الى الحد الذي يسمح لنا باطلاق مصطلح القومية الحديث على كيانه . حتى القرن التاسع عشر كانت العروبة ظاهرة ذات طابع متذبذب ، فهي تارة نزوعا عروبيا واضحا ، بينما تنحو في احيان اخرى منحى دينيا خالصا . بل كان الاندماج ، احيانا ، يصل ذروته بين الطابعين الديني والعروبي .

ولكن في القرن التاسع عشر ، الذي نقل الينا خلاله مفهوم القومية الحديث والذي يؤكد على المميزات التاريخية ويكرسها كظاهرة موضوعية فاعلة وحاسمة ومستقرة ، في هذا القرن تبلورت الظاهرة القومية ، اي انتهى تذبذبها بين الدين والقومية، في الشرق ، بعد فترة قاربت احيانا اكثر من الف عام مرت خلالها شعوب امتلكت اغلب مقومات القومية الحديثة في عصور مبكرة ولم تتوفر فيها الظروف الضرورية لتبلور هذه المقومات ، كالعرب والفرس والصينيين ، ومن الشعوب الاوربية الاغريق .

ب ـ **الحركة القومية** : الظاهرة القومية، كما اشرنا ، ظاهرة

وجودية تاريخية . اي انها خصائص ذاتية لشعب ما تميزه عن غيره . ولكن الظاهرة القومية كيما تكتسب طابعا (موضوعيا) ، مستقرا ، ينبغي ان تتجسد في (حركة) قومية ، في نضال من اجل التحرر القومي ، او الوحدة ، او كليهما ، والا فان الظاهرة القومية تبقى مجرد مميزات (ثانوية) تاريخية لم تصل الى مرتبة التمايز الموضوعي المتبلور .

لقد جاء عصر الراسمالية ليكون الاطار الموضوعي الذي احتوى الظاهرة القومية وحوّلها الى انشط حركة شهدها الغرب، ومن بعده الشرق في نهاية القرن التاسع عشر والعشرين .

ان هذا التميز بين الظاهرة القومية وبين الحركة القومية هو الذي يتيح لنا وحده ازالة قسم كبير من الالتباسات الخطيرة التي تحدث في اوساط عديدة، واهمها التباسان : **الاول** الالتباس الذي لا يرى الا (الظاهرة) القومية ، مجسدة في المجد والحضارة والتاريخ ، والنتيجة الطبيعية اهمال (الطريقة) التي تولدت بها (الحركة) القومية ، وفصل تبلور الحركة عن قيام النظام الراسمالي . اي نفي تأثير العوامل الاقتصادية على الظاهرة القومية .

الالتباس الثاني : الذي لا يرى الا (الحركة) القومية التي ظهرت حديثا في الغرب والشرق ، كنتيجة لظهور الراسمالية ، مهملا ، نتيجة نظرة جزئية ، التطور الواقعي (المتنوع) لشعوب العالم ، اي ان هذا الاتجاه يقلل من اهمية الظاهرة القومية . والنتيجة الطبيعية لذلك هي (تعميم) تجربة الغرب الواقعية ، على الشرق المختلف والمنطوي على الظاهرة القومية منذ اكثر من الف عام . وبذلك يقع هذا التيار في اسر التفسير الاقتصادي البحت اولا ، والمنهج التجزيئي ثانيا ، وهذان الانحرافان مضادان للماركسية اللينينية ، بخلاف ما يعتقد بعض السذج .

لقد تميز التيار الاول (القومية هي الظاهرة القومية فحسب)

بانه حوّل القومية الى معطى بيولوجي ، عرقي احيانا ، وجعل من المستحيل تفسير الظاهرة القومية بصورة واقعية ، بعد ان أرجعها الى (الذات) و(الحدس) و(التأمل) .

اما التيار الثاني فلقد الحق (كل) الظاهرة القومية ، بالحركة القومية الاوربية التي كانت نتاج السوق الراسمالي ، وبالتالي ، لم يعد للحركة القومية الا الطابع البورجوازي ! فحصل الطلاق (المفتعل) بين الحركة القومية ، في الشرق ، والحركة الاشتراكية! وكان هذا احد الاسس الجوهرية في تشرذم الحركة الوطنية العربية .

ولو حاولنا العودة الى التاريخ العربي لنكتشف العلاقة بين الظاهرة القومية والحركة القومية لامكننا ملاحظة ان الشرق ، والعرب بالخصوص ، كان في القرون الوسطى يعيش عصره الذهبي ، حضاريا وعلميا واجتماعيا ، في نفس هذه الحقبة كان الغرب عبارة عن (قبائل) متقاتلة ، متخلفة الثقافة والحياة الاجتماعية ، تعاني من عصور الظلام. وكانت هذه القبائل لا تعرف غير عالمها الضيق . لكن وجود الشعب العربي وقيادته للمسيرة الحضارية العالمية ، آنذاك ، لم يكن يعني وجود (الحركة) القومية، بل انه يعني فقط وجود (الظاهرة) القومية .

الحركة القومية تعني (الوعي) الكامل و(المستقر) للتمايزات الموضوعية بين الشعوب ، و(النضال) المتعمد من اجل كيان موحد ومستقل لكل شعب من هذه الشعوب . وهذا (الوعي الكامل) لم يظهر في العالم كله الا مع ظهور الراسمالية في الغرب ، ومع احتلال الشرق من قبل الغرب بعد نمو النظام الراسمالي في الغرب . لقد حملت الينا (الوعي) القومي الروح الاستعمارية الغربية التي استولت على الخليج والهند ، ثم طردت العثمانيين وحلت محلهم ، فكان ذلك بداية لبلورة ما كان (جنينا) ، او ظاهرة غير مكتملة ، وأوصلت ما بين (بدايات) نشوء حركة قومية انكفات

اكثر من مرة بتحولها الى حركات دينية ، او طائفية ، أو عرقية ، وسبب انكفائها عدم كفاية الشروط الذاتيــــة (الاعتزاز بالنسب القومي والمجد والحضارة ووحدة الانتماء اللغوي) لبروز الحركـة القومية ، التي تحتاج لظروف موضوعية «وجود علاقات أنتـاج واسعة وتجميعية تنهي التبعثر الاقطاعي» نقــول : أوصلت بين (بدايات) نشوء حركة قومية انكفأت وبين اليقظة الجديدة التـي لاحت في القرن التاسع عشر .

فكان النهوض القومي العربي خاضع لقوانين (خاصة به) :

١ ـ فهو امتداد (متقدم) نوعيا ، لمحاولات فاشلة سابقــة لاقامة كيان قومي (متبلور) و(دائم) ، حدثت في زمن الدولــة الاموية مثلا . وعلى النقيض من ذلك لم يحصل في الغرب اي ميل سابق للراسمالية لاقامة كيانات (قومية) خاصة . والامبراطورية الرومانية لم تكن بأي حال من الاحوال دولة قومية ، او حتى شبه قومية .

٢ ـ والنهوض القومي العربي نشأ في احضان انظمة مختلطة، هجينة : الاقطاع ، شبه الراسمالية ، التجاريــة ، العبودية . بينما لم تنشأ الحركة القومية في الغرب الا على انقاض الاقطاع وفي أحضان الراسمالية . لذلك ورثت الحركة القومية العربية الاجزاء الاساسية من الابنية الفوقية لهذه الانظمة المختلطة ، بينما تميزت الحركة القومية في الغرب بانها ذات ثقافات بورجوازيــة شبه خالصة !

هذه الاختلافات (الجوهرية) بين نشوء الظاهرة القوميـــة والحركة القومية في الغرب والشرق ، تنعكس بصــورة مباشرة احيانا ، وغير مباشرة في احيان اخرى ، على طبيعة التناقضات الداخلية في الوطن العربي ، وتحدد العلاقة بين هذه التناقضات، وترسم الطريق للممارسات التكتيكية اليومية ، اضافة الى انها تفرز مفاهيم وسطية ، عن القومية ، والصراع الطبقي .

لقد اصبحت هذه الخصوصية مصدرا رئيسيا من مصادر ازمة الحركة الثورية العربية ، بل انها قررت مستقبل الوحدة الداخلية لجميع الاحزاب الزائلة والقائمة . فأصبح من الضروري ازالة الالتباسات الرئيسية المتعلقة بالمسألة القومية ، ومناقشة الممارسات والمفاهيم السائدة حاليا ، ثم تقديم الفهم الاكثر واقعية وعلمية لعلاقة المسألة القومية بالصراع الطبقي ، وتحليل أستراتيجية الثورة وتاكتيكاتها السياسية .

طبيعة تناقضات الامة العربية وخصوصيتها

الثورة (قومية) ام ديمقراطية ؟

عندما انطلقت الطبقة البورجوازية في الغرب حاملة شعارات التغيير الثوري ، بعد القرن السادس عشر ، كانت مهمتها المركزية تتلخص في انتزاع قيادة الدولة ـ الامارة من الاقلية الاقطاعية ـ الارستقراطية المستبدة ، وإشراك فئات الطبقة البورجوازية في الادارة كخطوة أولى نحو استحواذها التام على السلطة .

لذلك كانت نشاطاتها الثورية تدور حول توسيع الاقتراع وعدم حصر حق ممارسته في الطبقات الحاكمة ، وإلغاء الشروط المالية للترشيح والانتخاب ، واعلان المساواة (القانونية) بين جميع المواطنين ، وتوسيع صلاحيات البرلمانات بتقليص صلاحيات الامراء والملوك الخ . بتعبير آخر : كانت البورجوازية تطمح في توفير مناخ حر لممارسة نشاطاتها الاقتصادية كخطوة اولى نحو الاستيلاء على الة الدولة كليا، على اعتبار ان من يسيطر اقتصاديا لا بد وأن يكون له حجم سياسي موازٍ ومطابق لحجمه الاقتصادي . فكان من الطبيعي ان تختار الارستقراطية ـ

الاقطاعية الحاكمة موقف رفض المساواة والديمقراطية ، لان هذه المساواة القانونية والديمقراطية ، مع تنامـــي الدور الاقتصادي الفعلي للقطاع الراسمالي ضمن النظام الاقطاعي ، كفيلان بإزاحتها عن السلطة السياسية .

هذه المهام والظروف الخاصة هي التي دمغت الصراع بالطابع الديمقراطي شبه الخالص ، فزخر تأريخ الغرب بالنضال من اجل الديمقراطية، الذي تزعمته الطبقة البورجوازية الجديدة ، القوية، فجاء مصطلح «الثورة الديمقراطية» ليعبر ، بدقة وصواب ، عن طابع ومهام المرحلة التاريخية . وبما ان النظام الراسمالي قد هيأ الاطار الضروري والشرط اللازم لبروز حركات قومية ، فـــان «الثورة القومية» في الغرب كانت جزء لا يتجزأ من الثـــورة الديمقراطية ، وفي بعض الاقطار مرافق لها .

كان التناقض الرئيسي بين الطبقة البورجوازية ، مدعومة من قبل العمال والفلاحين ، وبين الطبقة الارستقراطية مدعومــة من قبل الاقطاع وكبار رجال الدين . ولم يكن ثمة تناقض يطغى على هذا التناقض . اما التناقضات الاخرى فكانت موجودة ، لكنها كانت ثانوية ، او مجمدة . فمعسكر الثورة الديمقراطيـــة (الذي يضم البورجوازية ، العمال ، الفلاحون الخ) لم يكن موحدا ومنسجما الا بالقدر الذي يتيح له انجاز مهام الثورة ، وما يتعدى ذلك ، اي البرامج الطبقية الخاصـــة والافكار والتكوينـــات الاجتماعية ، كان يشكل مصدرا لتناقضات عديدة ، لكنهـــا تناقضات غير حاسمة ، لان تفجيرها ، كتناقضات عدائية لا بد من حسمها ، لا يتم الا بعد اختمارها ، وهذا ما لا يجب وقوعه الا بعد ازاحة الاقطاع والارستقراطية .

التناقض الرئيسي ، اذن ، كان واحدا ، ولم يكن ممكنا ان تجري الصراعات السياسية والطبقية ، في ظل الظروف المذكورة، الا نتيجة لفاعلية واحد من التناقضات وقدرته على الحســـم والتقرير ، فتلحق به سائر التناقضات الاخرى .

ان ظروف الغرب (النموذجية) التالية :

١ ـ انقسام طبقي حاد ومتبلور خلفيته طبقات مكتملة النضوج والاستقلال .

٢ ـ غياب الظاهرة (الاستعمارية) التي تستفز الشعوب الاوربية الكبرى . واقتصار النضال القومي ، غالبا ، على قضية وحدة الشعب (الالمان ، الفرنسيون ، الايطاليون) او تحرره من سيطرة دولة اخرى : فتوحات نابليون ، تطلعات الشوفينية الالمانية . تجربة نابليون أدت بالنتيجة الى ضرب من الفتوحات (الامبراطورية) ، فساهمت في بلورة الوعي القومي في الكثير من اقطار أوربا .

هذه الظروف هي التي أتاحت لوحدها بروز تناقض رئيسي واحد خالص وواضح ، وهي التي مكنت من رؤية سلسلة متتابعة ، منطقية ، من الصراعات المنظمة ، والمراحل التاريخية المتعاقبة . فاصبحت مهمة الحركة الديمقراطية سهلة تماما .

لكن حدوث الثورة الديمقراطية (الخالصة) في الغرب ، وبصورة نموذجية ، هو ، بالضبط ، واحد من العوامل الجوهرية التي منعت قيام ثورة ديمقراطية (خالصة) في الشرق ، وفتح الطرق المتعددة لدخول تناقضات عديدة يصعب حصرها في تناقض رئيسي واحد ضمن الامة الواحدة ، وفق تحديدات الغرب للتناقض الرئيسي .

في الوطن العربي ، واغلب أمم واقطار الشرق ، لا نجد تناقضات (نموذجية) على النمط الغربي ، اي متبلورة وحاسمة ، بل نجد تجليات جديدة تماما لتناقضات خاصة تماما . اننا لا نستطيع القول بأن الثورة العربية «ثورة ديمقراطية» خالصة ، اي ان هدفها هو توسيع حق الاقتراع واعلان المساواة القانونية الخ، كما لا يمكننا القول بأنها ثورة اشتراكية تهدف الى تدشين مرحلة المجتمع اللاطبقي ، كما اننا ، ثالثا ، لا نستطيع القول بأن ثورتنا

(قومية) فقط ، هدفها التحرير والحرية والوحدة ، واخيرا فاننا غير قادرين على القول بأن ثورتنا (حضارية) ، او تكنولوجية نلحق عبرها بالعالم المتقدم .

ان الثورة العربية تواجه (مجموع) هذه المهام ، او بعض بداياتها الضرورية ، وعليها النهوض بها ، بعد تحليل واكتشاف مصادر تناقضات اوضاعنا الطبقية والاجتماعية والتاريخية . هل ثورتنا (قومية) ؟ أم (اشتراكية) ؟ ام (ديمقراطية) ؟ ام (حضارية)؟ بتعبير آخر : من بين هذه التناقضات ، التي كل منها حاسم ورئيسي ، اي منها الاكثر حسما وفاعلية ؟ ان الاجابة على هذه الاسئلة هي (الخلاصة) الجوهرية لكل ما في شرقنا من خصوصية وتميز .

لنتذكر مميزات الوضع الشرقي ، العربي :

١ ـ جنينية الطبقات الاجتماعية وعدم خضوعها لنفس مخطط تطور الطبقاتالاجتماعية في الغرب، وذيلية البورجوازيات الشرقية للامبريالية .

٢ ـ تعدد أشكال الاضطهاد القومي ، فالى جانب وجود الاستعمار وبروز استغلاله ، جزء الوطن العربي ، او اقيمت (دول عربية) قانونية منفصلة عن بعضها بحدود دولية ، وبتراكمات عصور التجزئة . ولم تكتف الامبريالية بذلك بل عمدت الى اقامة دولة امبريالية عسكرية متطورة جدا ، لتكون شرطيا يقمع تطلعات العرب للتحرر والوحدة والاشتراكية ، تلك الدولة هي اسرائيل. وهذه الدولة ذات التكوين السكاني الغريب تجربة فريدة في تاريخ نضالات الشعوب التحررية .

الميزات العربية المذكورة علمت ، بالتجربة ، الطلائع الحزبية اليسارية ان نهوضا اقتصاديا وحضاريا حقيقيين ومستقرين ، مرهونين بتحقق الوحدة العربية والتحرر . عبر اكتشاف هذه الرابطة امكن اكتشاف الرابطة (الداخلية) المحتومة بين وجود

الظاهرة الاستعمارية والامبريالية ـ والمهمةالرئيسية عند وجودها قومية او وطنية ـ وبين الانقسام الطبقي الداخلي ـ والمهمة الرئيسية عند وقوعه طبقية .

لقد كانت الامبريالية (الجسر الموضوعي) الذي ربط بين النضال القومي والصراع الطبقي . فلولا الامبريالية والكولونيالية (الاستعمار) ، لما استمرت التجزئة العربية والاحتلال الاجنبي ، وبالتالي لما بقي ثمة مبرر للنضال القومي . ولولا الراسمالية الاحتكارية (الامبريالية) لما تشكلت الطبقات الجديدة ، او تغير طابع الطبقات التجارية العربية القديمة جدا لتصبح وكيلا (وطنيا) للغرب ، او ذيلا له ، وبالتالي عجز البورجوازية العربية عن قيادة النضال القومي ، كما حصل في الغرب .

ان ظهور النظام الراسمالي القديم والامبريالية ، كانا شرطين لازمين وحاسمين في بروز التناقضين التاليين عندنا :

التناقض الاول : الانقسام الطبقي في الداخل الذي كان امتدادا (نوعيا) لصراع طبقي قديم متداخل ، غير مستقر ، وتلقائي ، فجاءت الامبريالية لتنقله الى حالة جديدة تتميز بالاستقرار (النسبي) ، وتحديد مهامه التاريخية الجديدة «حماية مصالح الامبريالية»، وتدفعه ، قسرا ، صوب التركز والاستقطاب الاجتماعي الجديد المستند ليس على تقلبات بعضها عشوائي ، كما كان يحصل عبر الالف سنة الاخيرة من حياتنا ، بل على أرضية اقتصادية ـ ايديولوجية متماسكة يحيطها اطار عالمي ضامن يمدها بكل عناصر الاستمرار والقوة .

وهذا التناقض الطبقي (رئيسي) و(حاسم) لانه يسحق يوميا الملايين الى حد انه اصبح تناقضا (عدائيا) ، (مركزيا) ، لا يمكن تاجيله .

التناقض الثاني : التناقض القومي: فثمة (تجزئة) و(احتلال) عسكري وسكاني ، غرضهما نهب ثرواتنا والتمركز في مواقعنا

الاستراتيجية ، وإبادة (الجنس) العربي بقدر ما يعرقل المهمة الامبريالية المذكورة . ان التجزئة والاحتلال هما الشرطين الحاسمين لبقاء الاستغلال الامبريالي ، اي بقاء الوطن العربي سوقا للسلع المصنعة للغرب ومصدرا للمواد الخام لصناعاته . وعلى هذا الاساس فان اي حسم للصراع الطبقي لصالح الشغيلة في قطر واحد لن يكون نهاية المطاف في الثورة ، ولا حلا بديلا جذريا لمجموع القضايا المطروحة ، بل مجرد (خطوة) حاسمة في طريق طويل معقد وملغوم .

ان عالمنا اليوم هو عالم الوحدات الكبيرة والاكتفاء الذاتي القاري ، ولقد تخطت اوربا مصاعب بداية اللقاء لاجل تنسيق اوربي ، فتناسى الالماني والفرنسي العداء التقليدي بينهما ، مثلا، لاجل (مصالح اوربا المشتركة) ، واخذا يقيمان ، مع بقية الاوربيين ، علاقات (فوق قومية) او رغم ان الدافع الرئيسي لهذا المنحى الاوربي هو (تنافس) بورجوازيات المنظومة الامبريالية، فان ظاهرة التكتل القاري قد اصبحت سمة عصرنا الراهن .

والاكتفاء الذاتي لا يتحقق الا في اطار دولة متنوعة الموارد والمصادر . لذلك فان الاشتراكية العلمية (القطرية) ضد اتجاه التاريخ ، وهي تكون مشروعة ومبررة بقدر ما يعتبر بناءها مجرد خطوة اولى نحو اشتراكية علمية على نطاق قومي .

ما الذي يترتب على هذه الخصائص الشرقية ؟ لم يكن تأكيدنا السابق على خصائص العرب والشرق مجرد امر عابر ، بل هو محاولة لاعطاء صورة متكاملة عن المناخ الذي فرز الامور التالية :

الثورة ليست ديمقراطية

ان التحرير والوحدة اللذان يعتبران جزءا لا يتجزأ من مهام

الثورة الديمقراطية اوربياً ، لم يبق لهما اي ارتباط (ذيلي) بقضايا الديمقراطية التقليدية ، في الشرق ، الا بالقدر الذي تلوح فيه (المسألة الديمقراطية) جزء لا يتجزأ من ثورة اعم واشمل واكثر فاعلية . فنحن لا نناضل من اجل توسيع حق الاقتراع ، ولا لاجل المساواة القانونية ، رغم ان هذه القضايا متضمنة في صلب مهام الثورة الاوسع، كجزء ، كشرط لاحق. اي ان المسألة الديمقراطية لا يمكن حسمها ، شرقيا ، الا عند حسم قضية الثورة الاوسع .

لذلك فان استعمال مصطلح (الثورة الديمقراطية) عند تحديد طابع المرحلة التاريخية الراهنة ، استعمال غير دقيق ، وينطوي على التباس لاحق حتما . ويفضل استعمال مصطلح (الثورة القومية) ، في حالات معينة ، لانه ينطوي على انجاز مهام ديمقراطية محددة ، لكنها (جزء) ثانوي من مهام الثورة الاساسية: طرد الامبريالية، تحقيق الوحدة، البدء بإزالة الاساس الاقتصادي للطبقات . الديمقراطية ، في الحالة هذه ، تأتي (كشرط) لممارسة دور اكثر فاعلية من قبل الطبقات الثورية ، وليس هدفا منفصلا يحتوي بقية الاهداف. اضافة لذلك فان الديمقراطية (الآسيوية)، الشرقية ، ليست ديمقراطية ليبرالية برلمانية ، لان ذلك يقود الى طريق مسدود وملغوم بصورة خطرة ، بل (ديمقراطية شعبية ـ مركزية) تعيد (تربية) الجماهير ، بنفس الوقت الذي تتيح فيه لها ممارسة حقوقها .

الثورة ليست قومية (خالصة)

ان الالتباس لا يزول بمجرد تفضيل مصطلح (الثورةالقومية)، اذ تبقى المسألة غامضة وعلى قدر كبير من التضليل ، ما دام المصطلح ، بالنسبة للبعض ، اكثر من طابع مرحلة ومجرد تحديد

مطلق ، اي النظر الى المسألة القومية كظاهرة منفصلة عن الصراع الطبقي ، او اعتبارها (الاصل) الذي يلحق به الفرع .

حقا ان ثورتنا الراهنة (قومية) ، لكنها ليست قومية (خالصة) ، ليست معزولة باسوار صينية عن الثورة الاشتراكية. كما اشرنا ، (الحركة) القومية في الشرق نتاج ظهور الراسمالية في الغرب ، هذا هو الوجه الاول للارتباط بين الثورة القومية والثورة الاشتراكية . كذلك فان الطبقات الشرقية الحالية اما تكونت مع الظاهرتين الاستعمارية والامبريالية ، او انها امتداد متطور للطبقة التجارية العربية القديمة المشهورة في بطون التاريخ القديم . وهذا الامتداد اصبح وكيلا محليا للاحتكارات الراسمالية الغربية ، والنتيجة الحتمية هي انفصال الطبقات البورجوازية الشرقية عن أممها وانحيازها التام ، غير الطوعي ، للغرب الامبريالي . وهذا هو الوجه الثاني للارتباط بين النضالين الطبقي والقومي .

عندما نناضل (قوميا) فاننا ، بالضرورة وضمنا ، نناضل (طبقيا) . وهذا قانون موضوعي في عصرنا . طرد الاستعمار يعني طرد القوة التي فرضت علينا التجزئة الحديثة والاستغلال الاجنبي ، اضافة الى انه يعني تصفية الاستثمار والاستغلال المحليين اللذين يمارسهما وكيل محلي للامبريالية ، هو البورجوازيات الشرقية .

اننا لا نستطيع ابدا تحرير وطننا من الامبريالية عندما نكتفي بطردها عسكريا ، او اقتصاديا في حالة اكثر تقدما ، ثم نسلم الامور للبورجوازية المحلية لتقوم باقامة الصناعة الثقيلة وانجاز (الثورة الديمقراطية) ، علماً بانها مجرد مسمار ، لا ارادة له ، في آلة الراسمالية العالمية ، رغما عنها وعن مشاعرها ! ان انظمة بكاملها ، وعناصر لها تاريخ وطني حافل ركعت على اقدام الامبريالية ، رغم استقلالها السياسي ، بمجرد ان حركت

الامبريالية اصابعها الاقتصادية والمالية المتغلغلة في طيات التكوين الطبقي والاقتصادي لهذه الانظمة .

ان الراسمالية اليوم ظاهرة (عالمية) ، (امبريالية) . ولم يعد ممكنا القول ابدا بامكان تحقيق القفزة الكبرى الى الامام باتباع الطريق (الراسمالي الوطني) ، كما حصل في الغـــرب . على النقيض من ذلك **فان تصفية الانظمة الاقتصادية المتناقضة ، اي الطبقية ، مرهون ، بصورة حتمية ، باختيار طريق الاشتراكيـة العلمية** . فلا نضال قومي (خالص) قادر على انجاز التحرير التام والوحدة ، ولا نضال اجتماعي ـ طبقي ، محلي ، منعزل ، قادر على ازالة البؤس والقضاء على التخلف . ينبغي ، اذا اردنا حقا التحرير والوحدة ، ربط النضال القومي بالصراع الطبقي الداخلي والعالمي ، واكتشاف الركائز الذاتية للطبقـــات الشرقية ، اي الداخلية ، والركائز الاصل ، اي الخارجية .

هنا يبرز ترابط (داخلي) عميق بين النضال القومي وبين الصراع الطبقي لا يستند على العواطف والرغبات ، بل على تحليل ملموس للواقع الملموس ، وباكتشاف قوانين عصرنا الموضوعية . فيصبح من الصعب جدا قبول مصطلح (الثورة القومية) بصورة مطلقة .

الثورة وسياسة حرق المراحل

مع ذلك لا زال ثمة التباس آخر قد نقع فيه ، بعد ابرازنا لاهمية وواقعية ارتباط النضالين الطبقي والقومـــــي ، فلربما يتصور البعض ان هذا الارتباط ، وهذا النفي (النقاوة) ثورتنـــا القومية من المضمون الطبقي ، قد يعني الشروع بالثورة الاشتراكية (فورا) متخطين المراحل الموضوعية التي تسبقها . وهـذا تصور

خاطيء وسطحي ينبغي ازالته .

لئن كان اصل مشاكل (حركتنا) القومية الراهنة (طبقيا) ، على الصعيدين الداخلي والعالمي ، فان ذلك لا يعني ابدا ان الثورة العربية ، في المرحلة الراهنة ، ثورة اشتراكية ، كما يظن بعض السذج او حارقي المراحل . **ينبغي التمييز ، في هذا الصدد ، بين الايديولوجيا ، المعبر عنها بفهم خاص للاوضاع والاهداف ، وبين الظرف الآتي او المرحلي ، المعبر عنه بتبني استراتيجية مرحلية .**

كيما نعرف الارض التي نتحرك عليها والاطراف التي نتعامل معها ، لا بد من معرفة وتحديد المحركات الاساسية في المجتمع وقواه السياسية والطبقية . فالعمل السياسي لا يتم ، كقاعدة عامة ، عبر قفزات مفاجئة لا جذور تاريخية لها ، بل انه يلوح عملا (تطوريا) ، تراكميا ، ينتقل من البسيط الى المركب ، ثم الى القفزة النوعية . وتحويل المجتمع ، ثوريا ، لا يتم بحركات ذاتية سحرية تستطيع الغاء قوانين الطبيعة والمجتمع وتحقيق معجزات شبه دينية ، بل على العكس من ذلك . **ان ابرز ما يميز العمل الثوري ، والتحويل الاجتماعي ـ الاقتصادي بالتحديد ، هو التحرك ضمن شروط وامكانات معروفة ، او محددة مسبقا ، ودون التطلع الى دعم قوى خفية ، غير بشرية ، يمكن لها ان تساهم في تحقيق معجزة .**

واولئك الذين يقولون بسياسة (حرق المراحل) يقع بعضهم في التباس خطير وقاتل : **فثمة قضيتان متميزتان تماما : قضية حرق مرحلة تاريخية موضوعية والانتقال الى اخرى ، وقضية حرق طبقة عاجزة ، او فئة منها** . فاذا كان ممكنا ، بل وجوهريا، حرق الطبقة البورجوازية العربية الذيلية الاستهلاكية وتجاوزها، فان ذلك لا يعني ابدا تجاوز مرحلة الثورة القومية . اذ لا بد من طرد الغزاة ، ولا بد من توحيد الوطن ، ولا بد من تحقيق اصلاح

زراعي جذري ، ولا بد من وضع اساس الصناعة الثقيلة الوطنية الخ . هذه المهام الحاسمة في الثورة القومية لا يمكن القفز من فوقها وحرقها ، وإلا كيف ننتقل الى مرحلة الثورة الاشتراكية اذا لم تكن المهام القومية المذكورة منجزة ؟

ازاء الضرورة العملية لحرق الطبقات الذيلية القاهرة ، وإزاء ضرورة انجاز المهام التي كان مفروضا بهذه الطبقات القيام بها ، تظهر الضرورة المطلقة والحاسمة لنهوض طلائع الطبقات الاكثر ثورية «تحالف العمال والفلاحين والاجزاء المنسلخة من البورجوازية الصغيرة» بإنجاز هذه المهام القومية ، وليس الغاءها وحرقها . نحن ازاء (استعاضة) عن طبقة اخرى ، وليس ازاء (الغاء) مرحلة تاريخية، موضوعية بمرسوم او قرار او مقولة .

اذن : على الصعيد الايديولوجي ، ينبغي تحديد طبيعة التناقضات وتحليلها على ضوء منظومة فكرية مميزة للحزب الثوري ، واكتشاف ما تنطوي عليه هذه التناقضات من خصوصية وتحيز . واستراتيجيا ، ينبغي البحث عن القوى والاساليب والتوترات والامكانات الكفيلة بالوصول الى اهداف محددة . في اطار (الاستراتيجية) يمكن النظر الى الثورة كثورة (قومية) اي يطغى عليها الطابع القومي ، في مرحلة معينة ، فتلوح التكتيكات الظرفية متطابقة مع ضرورات تحالفية محددة ، وقد تبدو متعارضة مع الايديولوجيا ، بل حتى مع الاستراتيجية احيانا . ولكن عندما نحاول اعطاء فهم نظري (خاص) ، طبقي ، للاوضاع ، فان الفهم الاستراتيجي لا يكفي ، ولا يجوز تحويله الى فهم ايديولوجي .

ضمن مرحلة تاريخية معينة ، تحكم نضالنا استراتيجية محددة تلتقي عندها مختلف الفئات والطبقات والاحزاب ، من ضمنها الحزب الاشتراكي العلمي . فاستراتيجية التحرير ، مثلا، تلتقي عندها احزاب العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة ،

وافراد من البورجوازية الكبيرة والاقطاع ، بل وحتى بعض التيارات الدينية . لكن هذا الالتقاء لا يلغي الطبيعة الطبقية لهذه القوى ، بل يجمدها الى مرحلة لاحقة ، هي مرحلة التغيير اللاحق للتحرير . وعند استراتيجية الثورة الاشتراكية تتبدل تحالفات قوى استراتيجية التحرير ، ويبدا المضمون الايديولوجي والطبقي بالظهور ، بصفته العامل الحاسم في تقرير مجرى الاحداث والصراعات .

بعض الاحزاب ، بعد التحرير ، وحتى في منتصف طريق الثورة القومية ، تطرح شعارات وبرامج وسطية : اشتراكية (عربية) ، او (رشيدة) ، او (تعاونية) ، او (اسلامية) ! اما البعض الآخر فيطرح شعارات وبرامج ليبرالية : البرلمانية ، الحريات الديمقراطية ، الخ ، اما البعض الثالث فيتبنى شعارات جذرية: اشتراكية علمية ، ديمقراطية شعبية ، منهج ديالكتيكي الخ .

هذا الفهم الاخير ، الفهم الاشتراكي العلمي ، يستوعب ضمنه ، وكجزء منه ، الفهم الاستراتيجي . لكنه لا يترك المجال خاليا له ابدا . من هذه الزاوية لا يجوز ابدا الوقوع في براثن الاستقامة (الارثوذوكسية) ، او الحنبلية (٤) ، المتشفية ، كرد فعل مباشر لسياسة حرق المراحل . ان رفضنا لسياسة حرق المراحل ينبع من خشيتنا الانزلاق في فخاخ (الذاتية) الطاغية على (الموضوعية) وتجريد العملية الثورية من اساسها الملموس الراسخ: الموضوعية ، وبالتالي اللجوء الى (المغامرة) اليسارية (٥) ، كتعبير

---

٤ ـ الاستقامة الارثوذوكسية، او الحنبلية ، يقصد بها الاتجاهات المتصلبة (نظريا) والرافضة لفكرة التطور والتاقلم . وهي ضد المبادرة الثورية والخلق الذاتي والاجتهاد .

٥ ـ ازالة التباس : نحن ضد الفكرة التي تقول بأن المناضل جيفارا =

قاصر عن اليأس من انضاج الظرف الموضوعي .

اما اذا فرض ظرف (خاص) فكرة تجاوز مرحلة ، او حرقها، كما حصل في منغوليا عندما انتقلتمن النظام الاقطاعي الى النظام الاشتراكي دون المرور بالمرحلة الراسمالية ، فان ذلك ضرورة تاريخية ينبغي الاستجابة لها دون تردد .

ان (اختصار) المراحل ، كقاعدة ، وحرق المراحل، كاستثناء، ممكنان ، واحيانا ضروريان ، في عصرنا الراهن . نحن لا نستطيع القول بأن من الضروري انتظار الاختمار الضروري لاي نهوض ثوري او تغيير اجتماعي ، لمجرد ان الاختمار مسالة موضوعية ، اذا كان ممكنا ان يساهم العامل الذاتي «البشر، الاحزاب، الوعي، المؤسسات ، الطبقة» في التعجيل باختمار الظرف ، وهذا هو اساس منطق جيفارا الماركسي اللينيني ، واغلب احزاب اليسار الشيوعي ، وغير الشيوعي في العالم .

اما المنطق (المنشفي) ، البليخانوفي ، البرنشتايني ، الكاوتسكوي ، فانه كان يرى ان الاختمار في الظرف الثوري ، او الانتقال الى الاشتراكية ، ينبغي ان يتم بعد (النضوج) التام للظروف والامكانات ، وبالابتعاد عن (المغامرة) و(الذاتية) . ولقد رفض لينين ذلك ، واكد انه لا يجوز لحزب ثوري الاستسلام لآلية التطور في العوامل الموضوعية «الظروف ، القوى المتوفرة ، النضوج الجماهيري ، وضع الحزب الثوري الخ» بل لا بد من تدخل العوامل الذاتية «خصوصا الحزب الثوري القائد» في

= «مغامر يساري بورجوازي صغير» لقد كان جيفارا فيسيرته وتنظيراته مجسد امين (للتيار) ثوري ماركسي لينيني ، وهو ، وان اعطى للمبادرة الثورية اهمية (خاصة) في عصرنا ، لم ينفِ القوانين الموضوعية وفاعليتها ، بل وقف ضد فكرة (الاستسلام) للواقع الموضوعي ولشروطه والية حركته .

انضاج الظرف وتخطي ما هو قائم .

ان (الاختصار) في المراحل ، والحرق في حالات (خاصة) ، ممكنان بفضل تراكم المعارف العلمية والتكنية وتنوع التجارب السياسية والاقتصادية ، ونمو النظم الاشتراكية ، وانتشار الافكار الاشتراكية العلمية ، وارتقاء نظرية التنظيم الحزبي الثوري «السرية ، والتسلسل الحزبي ، التربية الحزبية ، خضوع المؤسسات المهنية للحزب ، الديمقراطية المركزية ، طبقية الحزب ، تأثيره على القوات المسلحة في القارات الثلاث» ، وبروز العيوب الذاتية للراسمالية وعجزها الاصيل عن حل مشاكل الانسان .

لكن ذلك ، وان ازال غموض الكثير مَن القضايا العملية والنظرية بيد انه لا زالت ثمة ضرورة لتوضيح مراحل الثورة العربية : فرفض الحرق كقاعدة للعمل ، وتأكيد الاختصار لا ينفي (تداخل) مهام الثورتين احيانا ، الناجم عن (وحدة) الاداة القائدة للثورتين «القومية والاشتراكية» اولا ، وعن التشويه المتعمد الذي احدثته الظاهرة الامبريالية في مسار وطبيعة الاوضاع الاقتصادية والتكنية في القارات الثلاث .

فعندما تضطر طلائع الشغيلة للقيام بمهام الثورة القومية ، التي يفترض بالبورجوازية القيام بها، فانها تجد نفسها ازاء مهام متداخلة ، بعضها يعود للثورة القومية، والآخر للثورة الاشتراكية، كما ان التطويق الامبريالي ، يقابله التحالف مع القوى الاشتراكية العالمية ، يقود الى ممارسات وخطوات اكثر من قومية ووطنية ، وتدخل ضمن نطاق الممارسات والخطوات الاشتراكية .

لذلك ، ولتجنب الارباك ينبغي ملاحظة ما يلي :

أ ــ **الثورة الاشتراكية والسلطة الاشتراكية** : ليس ضروريا في عصرنا ، بل انه ضد اتجاه التاريخ ، ان تقود البورجوازية الثورة القومية . تلك المسلمة تؤدي الى قيادة الحزب الاشتراكي

العلمي للثورة القومية . هنا لا بد من التمييز بين (السلطة الاشتراكية) و(النظام) التحرري القومي . ان السلطة وان كانت اشتراكية الايديولوجيا ، الا ان النظام الذي تقوده ، في المرحلة الاولى ، ليس اشتراكيا بل نظاما (انتقاليا) يغلب عليه الطابع القومي . اما اذا اطلقنا على النظام صفة (الاشتراكية) فسوف نضطر للتنازل عن وضوحنا النظري ومهامنا المحددة ، مستسلمين لاوضاع غريبة جدا وغير ممكنة الفهم .

ب ـ الطابع (الغالب) والطابع (المتنحي) للثورة :

لكن الثورة ليست قومية (خالصة) ، كما اشرنا ، فكيف يجوز لنا نفي صفة الاشتراكية عنها ؟ الجواب بسيط : فعندما نريد تشخيص نظام ، او مرحلة ، يهمنا الطابع (الغالب) في تحديد هوية المرحلة او النظام وطبيعتهما . في المرحلة الاولى للثورة تطغي المهام القومية ، لذلك يقال ان (الثورة قومية) . اما في المراحل العليا ، فان الطابع الاشتراكي هو الذي يطغى ، شيئا فشيئا ، فنقول بأن (الثورة اشتراكية) ، ويحصل التطابق بين السلطة (الاشتراكية) والثورة (الاشتراكية) .

جـ ـ المضمون الاجتماعي ـ الطبقي للثورة :

ميزة الثورة القومية الراهنة ، موضوع بحثنا ونضالنا ، هي انها ليست ثورة قومية على النمط الغربي البورجوازي ، بل هي ثورة قومية ذات مضمون طبقي جديد : **انها ذات مضمون بورجوازي صغير اولا ، ثم ، في مرحلة لاحقة ، ذات مضمون اشتراكي علمي ، ايديولوجيا .**

واذا اهتممنا بالطابع المركب للثورة «ثورة قومية ـ طبقية» فاننا نستطيع تقرير مختلف اشكال الصراع المستقبلة ورسم اتجاهات التغيير المتوقعة ومعرفة اشكال التحالفات الضرورية ، وبذلك نحل واحدة من اكبر مشاكلنا الايديولوجية . اين تكمن الصعوبة اذن ؟ الصعوبة ، غالبا ، تتركز في اطار الاستراتيجية ،

لان اكتشاف الطابع الغالب ، او الاتفاق عليه ، من اصعب الامور واخطرها ان تناول مسالة العلاقة بين (القطرية) و(القومية) ، كمثال نموذجي ، سيكشف المصاعب الكبيرة التي تكتنف قضايا الاستراتيجية ، في ظرف كظرفنا .

التناقضات القومية والقطرية

في وطننا المجزأ منذ انحطاط الدولة العباسية ، والذي تعرّض كل قطر فيه لمؤثرات اقتصادية واجتماعية ودولية وجغرافية (خاصة)، لم يعد ممكنا قبول التقييم الواحد للاوضاع، والموقف الواحد منها . لقد تنوعت المشاكل وتداخلت واختلفت مستويات نضوجها وآفاق تراكمها ، بحيث اصبحت لكل قطر عربي (مشاكل خاصة) متميزة ناجمة عن (اختلاف) درجة تطوره و(نوعية) المؤثر الذي تعرّض له . وتلك حالة من التنوع في التناقضات ضمن الامة والشعب الواحدلا تسمح ابدا باعطاء احكام قطعية ، وحدانية بالانطلاق من مواقع قطر معين لفرضها على بقية الاقطار المكونة للامة وللشعب .

لم يحكم (الامة العربية) ، منذ أواخر ايام العباسيين ، اي خليفة او امير استطاع فرض نظامه ومركزيته على (الولايات) العربية الممتدة ما بين المحيط والخليج ، بل تتابع عليها امراء وملوك وسلاطين كرسوا التجزئة وحولوا العروبة الى مجرد (رابطة) ثقافية ، لغوية ، حضارية سالفة ، بعد خلق الفجوات الهائلة في بنية المجتمع العربي الاقتصادية والاجتماعية .

ولو نظرنا الى الاقتصاد العربي والتكوين الديموغرافي (السكاني) الحالي لوجدناه خير معبر عن هذه التمايزات في (درجة) التطور العام لشعبنا . فمصر ، مثلا ، تعتبر اكثر البلدان

العربية قدما وتطورا في صناعاته الحديثة ، فكان من الطبيعي نشوء راسمالية مصرية قوية نسبيا . اما في اليمن الشمالي فان اسس النظام العبودي ـ الاقطاعي لا زالت هي المعول عليها ! وبين هذين النظامين تمر ، متتابعة ، بقية الانظمة العربية .

هكذا تمايزات لا تسمح لنا بأن نقول بأن (التناقض الرئيسي) في المرحلة الراهنة هو (تناقض قومي) فقط ، او انه (تناقض طبقي) فقط ، لاننا بذلك نسحب حكما (قطريا) على وضع (قومي) متنوع . ينبغي ، ازاء هذا التنوع ، تحديد القطر الذي نحن بصدد (تقييم) أوضاعه ، وملاحظة (المرحلة) التاريخية و(تناسب القوى ، وهذه الامور تختلف طبعا . لذلك فان حكمنا يتحدد على ضوء عاملين :

العامل القطري : فعبر تحليل أوضاع قطر معين نستطيع صياغة حكم وتحديد التناقض الرئيسي فيه .

العامل التاريخي : لكن هذا التحليل القطري خاضع ، بشكل وبآخر ، لطابع المرحلة التاريخية . فكون (اسس) النظام اليمني، هي نفس اسس النظام الامامي القبلية ، لم يمنع ، في ظل الظروف العالمية المؤاتية بالنسبة للاشتراكية العلمية والمجافية للراسمالية والاشتراكيات (القومية) ، من تبني الاشتراكية العلمية في جنوب اليمن ! لقد انبثق نظام عربي جذري ، ليس في مصر اكثر البلدان العربية تطورا صناعيا ، بل في اليمن الجنوبي ، التي تعتبر من الاقطار العربية المتخلفة . وتلك هي (مأثرة) العامل الذاتي الكبرى ، اي الجبهة القومية ، التي فجرت كل اسس واطر العلاقات القبلية والاقطاعية والامامية ، بالاضافة الى العامل (المساعد) : قيام النظم الاشتراكية في اكثر من ثلث العالم ، والتهاب الثورة الوطنية ، ذات الآفاق الاشتراكية ، او الثورة الاشتراكية ، في الثلثين الآخرين .

ان التنوع القطري يفرض نفسه عند وضع الاستراتيجية

وتحديد طبيعة المرحلة . وبدون مراعاته نسقط في فخاخ الاحادية والتبسيط والالحاق . ففي قطر معين قد يكون التناقض الرئيسي مع الامبريالية (الجزائر اثناء الاحتلال) ، اي انه تناقض قومي ، بينما في قطر ثان ، وبنفس الوقت ، ثمة تناقض طبقي مع طبقة عربية قاهرة . وحتى التناقض الطبقي يتخذ اشكالا جد متنوعة: فقد يكون الخصم الطبقي من طبقات (اخرى) معادية ، وقد يبرز، بالنسبة للبورجوازية الصغيرة ، من بين صفوفها ، لكون فئاتها ذات وضع انتقالي ، فتنقسم هذه الطبقة وينشب قتال ضار ودام بين فئاتها .

اما بالنسبة للنضال القومي فانه ايضا متنوع الاشكال تبعا لنوع القوى الاجنبية المهيمنة ، ودرجة تطور القطر . فالامبريالية الفرنسية ، في الجزائر ، كانت امبريالية (دمج وفرنسة) ، بينما الامبرياليتين البريطانية والاميركية ، تهتمان فقط بضمان مصالحهما الاقتصادية والاستراتيجية ، ولا تدمجان هذه المصالح بسياسة الصهر القومي . اضافة لذلك ثمة نمط ثالث للامبريالية اشد خطرا وفاعلية : الامبريالية السكانية ــ العسكرية في فلسطين ، والتي انتجت دولة اسرائيل .

هذا التباين في (اساليب) الدول الامبريالية ، يفرض تباينا مقابلا في اساليب قوى الثورة : فسياسة الصهر القومي الامبريالي تستلزم تشديد من قبل الثورة على (الشخصية القومية) للشعب ، اما سياسة النهب والسيطرة العسكرية فلا تحتاج لاكثر من وعي (اعتيادي) قوميا ، ومن جهة ثالثة تفرض الامبريالية السكانية ــ العسكرية ليس التشديد على الشخصية القومية للثورة فحسب ، بل حشد كل القوى المتوفرة لدحر هذه الامبريالية .

هل يعني هذا التنوع عدم امكان تحديد التناقض الرئيسي على صعيد قومي ؟ وهل يعني وضع استراتيجيات (قطرية

متعددة للثورة العربية ؟ الجواب على هذين السؤالين مشروط بملاحظة الاعتبارات التالية :

أ ـ في مراحل معينة يمكن القول بأن ثمة تناقض رئيسي قومي واحد ، عندما يكون هذا التناقض من الحسم بحيث تتضاءل ازاءه مجموع التناقضات الاخرى وتلحق به ، كما هي الحال الان، حيث يهدد وجودنا كعرب ، كبشر ، وجــود احتلال سكاني ـ عسكري تمارسه اسرائيل يتسع بهدف افناء (السكان الاصليين)، اضافة للاحتلال العسكري ، او المالي ، او الاثنين ، للامبرياليات الغربية . ان تناقضنا مع اسرائيل والامبريالية (تناقض قومي) من حيث الشكل . ضمن هذه الحدود يمكن القول بان التناقــض الرئيسي تناقض قومي .

ب ـ لكن ذلك مجرد تحليل (شكلي) ، سطحي : اذ ان وجود اسرائيل ووجود الامبريالية في وطننا (نتاج) وجود الراسمالية (كنظام) ، وهي ظاهرة (طبقيـــة) مباشرة ، **فالنضال القومي ، والتناقض الرئيسي القومي ، اذن ليسا مجردين من الطابـــع الطبقي ، حتى في أشد حالات تفاوتهمـــا ، بل انهما ممتلئين بمضمون طبقي مباشر ، او غير مباشر دائما** . عند هذه النقطــة تسقط كل المفاهيم القومية الخالصة ، المجردة من المضمـــون الطبقي . ومما يعمق هذا السقوط عجز وذيلية البورجوازيـــة العربية عن قيادة النضال القومي (ضد الاستعمار) ، وتسلـــم الاحزاب الاشتراكية العلمية هذه المهمة .

جـ ـ كذلك يمكن القول بأن ثمة تناقض رئيسي طبقي واحد، في قطر معين ، عندما يتم طرد الامبريالية وركائزها المحلية . عند ذاك تصبح الصراعات الطبقية مستقرة ، نقية . لكن تفاوتها ايضا (شكلية) : **فوجود الامبريالية (عالميا) ، ووجود الانظمة المرتبطة بها هنا وهناك ، يضفي على الصراع الطبقي الداخلي** مسحة (قومية) **و(اممية) ، عبر محاولات الغزو الخارجي ، او دعم الفئات الرجعية**

المعادية في الداخل من قبل الامبريالية .

الحقائق المذكورة عن تنوع وتعدد التناقضات العربية لا تنفي ابدا وجود تناقضات مشتركة ، اي قومية ، يمكن اجمالها في تناقضين رئيسيين :

التناقض الرئيسي (الاول) : الصراع بين الامة العربية من جهة وقوى الامبريالية العالمية ، وبضمنها اسرائيل . هذا التناقض هو البندقية المصوبة الى راس العرب افرادا واحزابا وانظمة . اي انه تناقض حياة او موت .

التناقض الرئيسي الثاني : الانقسام الطبقي الداخلي . وهذا الانقسام حاد ، ومتنوع ، وغير متبلور (تاريخيا) ، ويعتبر اساس ومصدر قوة واستمرار التناقض الاول .

هذان التناقضان (الرئيسيان) مترابطان ومتداخلان ، ويغلب احدهما على الآخر ، حسب تغير (توترات) الظروف العامة . وعلى ضوء ترابطهما الديالكتيكي ، وليس الالحاقي ، يمكن القول بأن التناقض الرئيسي الغالب ، الاول ، الان ، هو تناقضنا مع اسرائيل ، بصفتها كلب حراسة للمصالح الامبريالية ، فالامة العربية مهددة بالانقراض وزوال الشعب العربي من خارطة العالم ، تماما كالهنود الحمر ، سكان اميركا الاصليون . لكن هذا التناقض الرئيسي ، الاول يستند على خلفية وضمانة داخلية : الانقسام الطبقي الداخلي ، الذي يعتبر التناقض الرئيسي الثاني حاليا .

بتعبير آخر : **الثورة العربية ، في المرحلة الراهنة ، ثورة (قومية) بآفاق اشتراكية مقبلة ومحتومة** ، والجسر الذي يربط الثورتين المتصلتين عضويا هو طلائع (تحالف) الطبقات المشتركة في الثورة والقائدة لها ، اي الحزب القائد .

اننا عندما نبدأ بتصفية الامبريالية والصهيونية نجد انفسنا وجها لوجه ازاء مقاومة الرجعيين العرب ! بل حتى ازاء بعض

(الوطنيين) العرب السابقين ! وهؤلاء يمثلون طبقة (محلية) ، تجر تصفيتهم الى تغليب الطابع الطبقي للتناقضات على الطابع القومي. ولقد اثبتت التجارب العملية صحة هذا الاستنتاج : فبالرغم من (انتساب) الملك حسين ، كمثل واحد فقط ، الى الامة العربية ، وادعاءه الاتصال بنسب (نبي العرب) الهاشمي ، قام بتصفية القواعد العسكرية للمقاومة الفلسطينية التي بقيت اسرائيل تحلم بتصفيتها والقضاء عليها ، وشنت حرب عام ١٩٦٧ لاستئصالها. كانت الامة العربية ، ولا زالت ، تعتبر المقاومة الفلسطينية (الامل) الكبير في الصمود وتحرير الاراضي المحتلة ، فجاء الملك (العربي) و(الهاشمي) ليقوم بما ارادت اسرائيل القيام به ! ولم يمنعه (رباط العروبة) من تصفية القواعد الاشد خطرا على كيان اسرائيل . فماذا حصل ؟

لقد اعقبت هزيمة عام ١٩٦٧ موجة (قومية) عارمة طغت على مظاهر الصراع الطبقي وقللت منه . واستمرت هذه الموجة الى ايلول عام ١٩٧٠ حينما فجّر الملك حسين صراعا داخليا ، عربيا، أدى الى تصفية القواعد العسكرية للمقاومة الفلسطينية ، وذبح اكثر من عشرين الف فلسطيني ! وهكذا قتل الملك من العرب ، في اشهر ، اكثر مما قتلت اسرائيل حتى حرب ١٩٦٧ !

ولم تتوقف هذه المظاهر عند حدود الاردن ، بل شملت اكثر من قطر عربي ، فراحت عناصر اليمين ، بدلا من حشد الطاقات وتمتين التحالفات الوطنية ، تقوم بعمليات (انقلابات) بيضاء ، او حمراء ، لتصفية دعاة الصمود ورفض الاستسلام ودعم المقاومة وضرب المصالح الاميركية !

اذن : وجد اليسار العربي نفسه (مجبرا) على اعادة النظر في (الطابع الغالب) للصراع، وكشفه عن الجذور الطبقية ـ الامبريالية لسلسلة التصفيات الدموية والسلمية لليسار العربي ، فتنحت، في فترة ما بعد ايلول ١٩٧٠ ، الصفة القومية لصالح طغيان

الصراعات الطبقية .

ولئن كانت متابعة التغيرات التي تطرأ على توترات الصراعات الدائرة تمكننا من تحديد التناقض الرئيسي الاول ، فان ذلك لا يكفي ، فلا بد من وضع استراتيجية (ثانوية) ، (قطرية) .

الاستراتيجية العامة القومية لا تكفي لحل كل ما يواجهه الحزب الثوري المنتشر في اغلب اقطار الوطن العربي ، كحزب البعث الذي لا زال الحزب القومي الوحيد ، بل لا بد من تحليل الاوضاع القطرية (الخاصة) ، ورسم خطة عمل خاصة ، على ان لا تكون متعارضة مع الاستراتيجية القومية .

ان ما هو خاطيء في اليمن الشمالي ، مثلا ، من وجهة نظر التكتيك ، هو صحيح تماما في اليمن الديمقراطي : فتبني الاشتراكية العلمية في الشمال بصورة رسمية ، وطرح ذلك كمطلب فوري وحاسم ، امر ينطوي على تجاهل غبي لظروف النضال ، بينما يعتبر ذلك مهمة استراتيجية آنية حسمت في مؤتمرات (الجبهة القومية) ! نحن لا نستطيع القفز من فوق ما هو قائم الا اذا وفرنا الاساس المتين للقفز . والنتيجة الطبيعية لذلك هي اختلاف استراتيجية الثورة اليمنية العربية في كلا شطريها .

ولا يمكن تجنب سلبيات الازدواج المحتوم في الاستراتيجية (اي وجود استراتيجية قومية واستراتيجية قطرية) الا اذا كان قائد النضال حزب قومي ، له فروع في الاقطار العربية الرئيسية، فالاحزاب القطرية تبقى عاجزة (عمليا) عن وضع الاستراتيجية القومية الثورية التي تتجاوب مع تنوع الظروف العربية ، رغم انها تستطيع تقديم تفسيرات نظرية صحيحة ومتقدمة .

ان التنظيم المركزي القومي للحزب الثوري ، هو وحده الذي يتيح انجاز مهمتين حاسمتين :

اولا : خلق الاداة القومية المنسجمة فكريا وسياسيا

واجتماعيا . وهذا يحل مشكلة تباين وتأثر التطور الفكري والاجتماعي والسياسي بين مناضلي الاقطار العربية .

ثانيا : استيعاب مجموع التناقضات العربية ، الثانوية منها والرئيسية ، واكتشاف حجومها الحقيقية ، وتحديد التناقض الرئيسي الاول والتناقض الرئيسي الثاني ، عبر وجود (ممثلين) لاغلب الاقطار العربية في قيادات ومؤتمرات الحزب .

ولم يظهر في الوطن العربي حزب قومي يتميز بنظرية تنظيمية تتطابق مع الايديولوجيا الثورية ، سوى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يشمل بتنظيمه اغلب اقطار الوطن العربي، رغم فشل بعض المحاولات المقلدة لحزب البعث .

ما تقدم يشير الى اننا مجبرون عند تحديد التناقضات على الكشف عن خصوصيتها وشرقيتها ، ورفض التحديدات التقليدية الغربية الملائمة للغرب ، والا فان مجموع محاولاتنا ستبقى عرجاء، مريضة ، محبطة . ان الصين قد واجهت تناقضا رئيسيا اولا ، مع اليابان ، وتناقضا رئيسيا ثانيا ، مع الرجعية الصينية . التناقض الاول فرض تحالفا وطنيا مع الكومنتانغ فنسي الحزب الشيوعي الابادات الجماعية التي قام بها تشان كاي شيك ضده من اجل الدفاع عن الوطن ، فأدت الجبهة الوطنية دورها في النضال الوطني .

لكن هل يوجد بين الاقطاعيين والبورجوازيين العرب من يفضل ، عمليا ، التحالف مع اليسار العربي ضد اسرائيل ؟ او انهم يربطون بين التصفية العملية لليسار العربي بالقضاء (النظري) على اسرائيل ؟

الجواب العملي على السؤالين السابقين وجدناه في عمليات التصفية الجسدية التي قامت بها الانظمة ضد اليسار والمقاومة ، وفي الاعلان الرسمي عن الاستعداد للاعتراف باسرائيل . ولقد جاء هذا الجواب المزدوج في وقت واحد ليؤكد استحالة اقامة (تحالف وطني) مع هذه العناصر .

تلك الحقيقة (ميزة عربية) ، وينجم عن فاعليتها تناقض رئيسي ثاني توام ومرافق للتناقض الرئيسي الاول ، بخلاف الثورة الصينية التي كان ثمة نوع من التسلسل التاريخي في تعاقب التناقضين الاول والثاني : دحر اليابان ، ثم دحر تشان كاي شك . لن نستطيع ابدا القول بان علينا دحر اسرائيل اولا ، ثم دحر الرجعية ، رغم اننا نريد ذلك حقا ، لان الرجعية قد شرعت (عمليا) بتصفيتنا جسديا ، وبانهاء تناقضها العملي مع اسرائيل .

اذن ، العلاقة بين التناقضين الرئيسيين الاول والثاني لا تخضع لتسلسل زمني متعاقب ومرسوم مسبقا ، بل لمواقف اطراف التناقض ودرجة خطورة كل منها . فيتغلب طابع معين على الآخر ، توامه ، الذي لا يزول ولا يلغى ، بل يبقى يمارس فاعلية (غير مباشرة) سرعان ما تطفو لتقلب ، من جديد ، مقاييس الصراع وضوابطه .

واذا كان سهلا ، عند وجود تناقض رئيسي واحد ، اتخاذ الموقع بعد تحديد قوى التناقض وآفاقه ، فان من اصعب الامور متابعة تغيرات العلاقة الدائمة بين النضالين القومي والطبقي ، بصفتهما تناقضين رئيسيين محايثين ، اي ان وجود احدهما شرط وجود الآخر ، لان هذه التغييرات لا تخضع لعامل واحد ، بل لعوامل عديدة ، متغيرة ، متداخلة ، متنوعة . وهذا واحد من اخطر مصادر تذبذب المواقف ، وسقوط الكوادر ، وفشل البرامج .

ملاحظات ختامية
الوسطية البورجوازية الصغيرة

في مراحل من وعيها النظري ، المستند على التجريبية

والانتقائية ، تصوغ البورجوازية الصغيرة مفاهيما تهجينية ، بصدد المسألة القومية ، كما في المسائل الاخرى ، وقد سبقت الاشارة الى الكثير من هذه المفاهيم . ويمكن تلمس موقفها من المسألة القومية عبر النقطتين التاليتين :

اولا : تعترف التيارات التقدمية من البورجوازية الصغيرة الشرقية بالظاهرة القومية وتعتبرها ميزة واقعية تميز شعبا ما عن غيره . وهذا هو الجانب الموضوعي في تحليلها .

ثانيا : لكنها ، من الجانب الآخر ، تعتبر (الظاهرة القومية) فوق التعريف واكبر من التحديد . اي اننا لا نستطيع اكتشاف (جذور) الظاهرة القومية وطريقة تكونها ، او ارجاعها الى عوامل ملموسة ، واقعية ، حالية ، او مندثرة ، نظرا لانها حالة (سايكولوجية) تستولي على الفرد بالفطرة ، او بالاكتساب ، مالئة عليه عالمه واختياراته ، ومقررة مختلف مواقفه وانتماءاته ، وبضمنها موقفه الطبقي الذي يخضع ، بطريقة وباخرى ، لانتماءه القومي . وهذا هو العنصر الذاتي في التحليل ، والذي يقيم جسرا بين الفهم البورجوازي الصغير للمسالة القومية والفهم البورجوازي الكبير لها . اذ ان هذه الذاتية هي الغطاء لمختلف الميول القومية العدوانية ، او الاستغلالية ، والمجمدة للصراع الطبقي .

ان موضوعية البورجوازية الصغيرة تكمن في اقرارها للظاهرة القومية كظاهرة خارجة عنا. لكن هذه الموضوعية لا تنفرد في تقرير موقفها القومي ، بل يدخل عامل ذاتي ، ليتقاسم التأثير مع العامل الموضوعي ، عندما تؤكد على (سايكولوجية) الظاهرة القومية . ومما يزيد حدة الالتباس ويعمق غموضه هو الاصرار البورجوازي الصغير على هذه المزاوجة والتهجين المتعمد ، واعتباره (ميزتها الخاصة) ، ثم تفسيره على انه (تهجين ديالكتيكي ضروري) ! وبذلك تسير على قدمين تنتميان لشخصين يسير كل منهما في طريق مضاد للطريق الذي يسير فيه الآخر !

ولئن كانت الظاهرة القومية (ظاهرة موضوعية) لا يمكن الا اقرار وجودها وفاعليتها التاريخية ، فان تقديم تفسير (ذاتي) لها لا يعني أبدا انها ظاهرة (نصف موضوعية) ، فالتفسير ليس (جزءا) من الظاهرة ، او طبيعة لها ، وانما هو امر (لاحق) على وجودها .

ادانة العدمية القومية

ان العدمية القومية ، اي رفض القومية او اعتبارها ثانوية ، لا تنبع من التفسير الملموس المذكور سابقا ، كما قد يخيل للبعض، لان تفسيرنا وتأكيدنا على ان الصراع الطبقي ـ ونتاجه الامبريالية العالمية ـ هما اساس الحركات القومية المعاصرة ، لا ينطوي على اي ضرب من العدمية القومية ، او تقليل من شان الحركات القومية . لقد انبثقت الميول العدمية ، كما حصل لدى روزا لوكسمبورغ ، من تسخير الحركات القومية و(الوعي القومي) لخدمة المصالح الاستعمارية للبورجوازيات الغربية ، ومن كون الصراع الطبقي هو الصراع الرئيسي والصراعات الاخرى ثانوية وملحقة .

اما لدينا فان الحركات القومية ذات طابع تحرري وعادل ، وقد اكتسبت مضمونا طبقيا تقدميا وثوريا ، ولذلك فان اي ميل عدمي قومي يشير الى ظاهرة مرَضية لا بد من معالجتها فورا وتطويق ردود فعلها السلبية .

الدور الاستثنائي للحزب القائد

اذا كانت الطبقات جنينية التكوين ، والاستراتيجية مزدوجة والظروف الموضوعية غير مكتملة النضوج ، فان الحل يكمن في

درجة كفاءة الحزب : ان حزبا ثوريا ، يلتزم بإيديولوجيا الطبقة العاملة ، ويناضل لاعادة خلق الانسان جذريا ، ويمتد تنظيمه ليغطي الساحة العربية كلها ، هكذا حزب هو وحده القادر على متابعة التغيرات التي تطرأ على العلاقة بين النضالين القومي والطبقي ، وبالتالي حل قضايا الاستراتيجية والتكتيك الاساسية، وتحقيق فرز وطني وطبقي حقيقي ، كما انه سيعجل في اختمار الظروف الموضوعية ويختصر مراحل التاريخ .

بغداد

(آب ١٩٧١)



منشورات الطليعة العربية في تونس مارس 1987